نشأة المديح في العصر العباسي
عرض ودراسة

BILKISU MUHD ABUSUFIYAN
DEPARTMENT OF ARABIC
FEDERAL COLLEGE OF EDUCATION, KATSINA
bilkisumabusifyan@gmail.com

الملخلص:

إن هذه المقالة تحتوي في طيّاتها على نشأة فنّ المديح في العصر العباسي، وقد بدأت بالمقدمة التي عالجت فيها حال فن المديح في العصر حين كانت قصيدة المديح على نهج من سبقهم من الجاهليين والأمويين وتعديدهم مع تعديد الممدوحين في العصر ثم واصلت المقالة إلى ذكر شعراء العصر كأبي تمام والبحتري وابن المعتز وغيرهم ومن ثم ختمت المقالة بشيء من التوصيات وقائمة المراجع والهوامش.

المقدمة:

استمر شعراء العصر العباسي ينسجون على منوال من سبقهم في قصيدة المدح فكانوا يعددون فضائل الممدوح من كرم وشجاعة وتقوى وزهد ومثل أخلاقية وإنسانية، قد سار العديد منهم على نهج الجاهليين و الأمويين في بناء القصيدة فكان العصر زاخرا بالشعراء والعلماء وأهل الفن، فبرز الإلحاح على المعاني الإسلامية خاصةً في مدح الخلفاء والوزراء على نحو لم يُعهد مِنْ قبل، الخليفة في نظر الشعراء إمام المسلمين و حامي حمى الإسلام.

يقول سلم الخاسر في مدح يحيى البرمكي(1) :

إذا بقـــى الخليفـــة و *** بقاء الدين والدنيا جميعًا

.الوزير

يَغارُ على حِمَى الإسلام يحي***إذا ما ضيع الحزم

الغيور.

لا يكاد يوجد في العصر وزير ولا وال ولا قائد إلا وقد مدحه الشعراء طلبا لجائزة السنية، ولن نستقصي مدائحهم، ولذلك سنكتفي بأكثرهم تداولا على ألسنة الشعراء، ولعل أنبه وزير لعصر المنصور أكثر الشعراء من مديحه خالد بن برمك. وكان يعقوب بن داود وزير المهدي ومهجو بشار ممدّحا لكثير من الشعراء.

و قد بالغ الشعراء في وصف مكانة ممدوحهم الدينية، يقول أبو نواس في مدح هارون الرشيد وقال:

لقد اتقيتَ الله حقَّ تُقاتـه***وجَهَدْتَ نفسك فوق

.جُهدِ المتقي

لَتخَافُكَ النُطفُ *** وَأَخفْتَ أهلَ الشِرك حتى إنه

.التي لَمْ تُخلقِ(2)

وقد بالغ العصبية في السياسة حينئذ واشتد أكثر مما كان في العصر الأموي حيث ضعفت بعض المذاهب كالخوارج والزبيريين ولكن الشيعة ظلت بقوتهم يطالبون بأن ينزل العباسيون عن الحكم ويردوا الأمر إلى نصابه، وتبعهم كثير من الشعراء غير أنهم يخافون بطش العباسيين، فكانوا ينظمون سرّا قلّما أعلنوه، بل لقد مضى فريق منهم يمدح الخلفاء تقيةً ويبالغ في مدحه، حتى ليصبح كأنه من دعاتهم(3).

فقد كانت الدنيا بين يديهم وكنوز الدولة في حجرهم فسال لها لعاب الشعراء ومضوا يدافعون عن حق العباسيين في الخلافة ويردّون على العلويين منكرين حقّهم فيها، وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كي يمدحوه وبيته ويبرهنوا على أنه هو بيت الوراث حقاً للخلافة ، ملوّحين في وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة. وعرف الشعراء فيه هذا الجانب، فاستغلوه يَقدمُهم ابن الجهم ومروان بن أبي الجنوب وغيرهما وأتوه من كل فجّ.قال مروان في حقّ العباسيين للخلافة:

مُلكُ الخليفة جعفرٍ *** للدين والدنيا سلامةْ(4)

لكم تراثُ محمدٍ*** وبعدلكم تُنْفى الظُلامةْ

وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشِّبْل البُرجميّ، حتى إذا دخل عليه أنشد قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتا استهلّها بقوله:

أَقْبِلي فالخير مقبلْ *** واتركي قـولَ المعلِّلْ

في بلدته وفي حمص مثل نوح بن عمرو والسّكسكيّ وبني عبد الكريم الطائيين في بلدته. ثم نراه يقلب وجهه نحو مصر قاصدا عيّاش بن لهيعة الحضرمي وغيره من الولاة وله يقول في إحدى مدائحه(12):

وأنت بمصر غايتي وقرابتي *** بها وبنو الآباء فيها بنو أبي.

وقال يمدح المعتصم بالله:

من راحتيك درى ما *** يدي لمن شاء رهنٌ لم يذُقْ جُرَعاً الصَّابُ والعسل

صلّى الإلَـهُ على العبــاس وانبجست *** على ثَرًا حلَّهُ الوكَّــافة الهُطُــل(13) كان أبو التمام رأس الطبعة الثالثة من المولدين. جمع بين معان المتقدمين والمتأخرين، وظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها. هو أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفيفة. وقد جمع شعره في ديوان طبع مرارا . وله غيره كتابا الحماسة وفهول العراء جمع فيهما عيون الشعر وغرره في الجاهلية والإسلام. وقد أحسن في الاختيار جد الإحسان حتى قيل إنه أبلغ في اختيار أبلغ منه في شعره. وقد توفي أبو التمام سنة 231هـ(14).

البحتري:

هو أبو عبادة الوليد بن عبيدة طئي الأب شيبانيّ الأم غلب عليه لقب بحتري نسبة إلى عشيرته الطائية بُحتر. وقد نشأ بين 206 إلى 284 للهجري بمنبج إلى الشمال الشرقي، وقد نشأ في أحضان عشيرته يتغذى من فصاحته ويبدو أنه اختلف مبكرا إلى الكتاب، فحفظ القرآن أو شطرا كبيرا منه كما حفظ كثيرا من الأشعار والخطب، واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة(14). فقد أخذ يمدح بعض خاصة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وهو يحي بن علي المنجم، الذي اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذه لهم الصلات السنية منهما، ووعده عليّ أن يصله بالفتح، ونراه يستنجز وعده في بعض شعره ويمدحه وينال جوائزه، استمع منه يقول(15):

وَصَافَ بأخلاقٍ هي الطّلّ في الصّبح *** فَمَّى يَنطَوي الحُسّادُ مِن مكرُماتِهِ

وثقي باالنُّجْح إذ أبـ ***صرت وجهَ المتوكلِ(5)

وكمَا قام الشعراء بتصوير الأحداث و الفتن و الحروب في قصائد المدح،و بذلك أصحبت قصيدة المدح وثيقة تاريخية تُصوَّر فيها البطولات العربية. وأبرز مثال على ذلك قصيدة أبي التمام في فتح عمورية، فقال:

السيف أصدق إنباءً من الكتب ***في حدَّهِ الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللعبِ(6)

و من نواحي التجديد في هذا الفن مدح المدن والتعصب لها والإفاضة في تعداد محاسنها، وأشهر المدن التي مُدحت الكوفة والبصرة وبغداد باعتبارهما المراكز الرئيسية للحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، ومن أشعر شعراء هذا الفنّ أبو التمام. يقول في حب بلاده.(7)

بالشّام قومي وبغداد الهوى وأنا ***بالرقمتين وبالفسطاس إخواني(8)

قال ابن المعتز في مدح الأمين ورثاء الخليفة رشيد:

العين تبكي والسنّ ضاحكةٌ *** فنحن في مأتمٍ وفي عرسِ(9)

يضحكنا القائم الأمين وتبـ ***كينا وفاةُ الإمام بالأمس

ومن أشهر شعراء العصر ابن دريد والحسين بن الضحّاك والناشئ أعلام لهذا العصر البحتري. وأبرز ابن الرومي وابن المعتز وأبو تمام،، وأبو النواس وأبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعرّي وهؤلاء أشهر شعراء هذه الحقبة، وسنكتفي بذكر بعض منهم. كأبي تمام والبحتري.

أبو تمام:

هو أبو التمام حبيب بن أوس الطائي، ولد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطرق منها إلى طبرية، وقد تعددت الروايات في سنة ولادته، وقيل سنة 172 وقيل سنة 182، وقيل 177هـ (10)وزعم قوم بأن أباه كان نصرانيا يسمى ثدوس. وقد تضاربت الآراء أيضا في نشأته، فقيل إنه نشأ بمصر يسقي الناس في مسجدها الكبير، وأكثرُ المؤرخين له على أنه نشأ بدمشق(11) ويبدو أنه أخذ يختلف — منذ نعومة أظفاره– إلى حلقات المساجد ينهل مما كان يجري فيها من جداول الشعراء والثقافة، وسرعان تدفق ينبوع الشعر على لسانه، واتجه به إلى بعض اليمنية والطائيين

- الميل إلى دراسات الأدبية شعرها ونثرها لما فيه من ذوق اللغوي.
- الاهتمام بأهم أغراض الشعرية وهو فن المديح على وجه العموم لأنه مرآة يسجل ويوضح لنا أحوال من سبقنا من الكرم والشجاعة وأحوال كرم الملوك والقواد والولاة الذين عاشوا في العصور المتفرقة.
- ثم التعمق بالمديح العباسي لأنه احتمل نوعا من ثقافة الجاهلي والأموي معا ولما فيه من ثروة اللغة العربية.

المراجع:

(1) عزيز فهمي، المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي. تحقيق: محمد قديل البقلي، دار المعارف، بدون ذكر تاريخ الطبع، ص 113.

(2) أبو النوّاس، ديوان أبو نواس. ت: الحسن بن الصباح. دار الكتب العربية بيروت، 1948م ص451

(3) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي 4 العصر العباس الثاني، ط3، دار المعارف القاهرة، بدون التاريخ. ص291.

(4) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي 4 العصر العباس الأول، ط9، دار المعارف، ب- ت. ص370

(5) شوقي ضيف، العصر العباس الأول. مرجع سابق، . ص347

(6) أبو هلال الحسن العسكري، ديوان المعاني. مرجع سابق. ج2 ص77

(7) سامي الدهان، فنون الأدب العربي الفن الغنائي 4 المديح، مرجع سابق، ص99.

(8) المرجع نفسه، ص101.

(9) ميشيل نعمان, ديوان ابن المعتز. الشركة البنانية للكتب بيروت. ص243. (10) أنظر أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب الأربي، دار المعرفة بيروت، ط14، ص212.

(11) أنظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف ط19 2009، ص268-269.

ومن مجلـده الأوْفى عـلى كَمَـدٍ بَرْحِ *** يَجِـــدُّ فَتَنقـــادُ الأُمُـورُ لجِـدّهِ

وفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه، ويسمع إليه وتتواتر صلاته وإقطاعاته عليه وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته فقد كان ديوان الخراج إليه.استمع إليه يقول يمدحه ويهنئه بعيد الفطر(16):

بالبرِّ صُمتَ وأنت أفضل صائمٍ *** وبسنَّة الله الرَّضيَّة تفطر

فـانعمْ بيومِ الـفطرِ عيناً إنَّـه *** يومٌ أغرُّ من الزَّمان مشهّر

يقولُ في وصف بِركة الجعفري وهو قصر ابتناه المتوكل في سر من رأى البسيط(17):

يا من رَأى البرَكَةَ الحسنا ورونَقها *** والآنســـاتِ إذَا لاَحَتْ مَغَانيها

ما بـالُ دجلةَ كالغَيْرَى تُنافِسُها *** في الحُسْنِ طوْراً وأطوَاراً تُبـــاهيها

شعره: كله بديع المعنى حسن الديباجة صقيل اللفظ، سلس الأسلوب كأنه سيل ينحدر إلى الأسماع مجوداً في كل غرض سوى الهجاء ولذلك اعتبره كثير من أهل الأدب هو الشاعر الحقيقي واعتبروا أمثال أبي تمام والمتنبي والمعري حكماء، ولسهولة شعره ورقته كان أكثر الأصوات التي يتغنى بها في زمنه من شعره المطبوع في ديوان حافل.

الخاتمة:

الحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد نبيّنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الكرام، فقد تم البحث المسمى "نشأة فن المديح في العصر العباسي" وقد عالجت المقالة هيئة فن المديح في العصر العباسي من ناحية الحديث عن تقدم الذي وجد الفن في العصر حيث ذكرنا أشعر شعرائها كالبحتري وأبي تمام وغيرهما مع الحديث عن نشأتهما ثم ختمت المقلة بشيء من التوصيات ثم قائمة المراجع والهوامش.

التوصيات:

أوصي زملائي المحاضرات والمحاضرين الأديبات والأدبّاء بالاهتمام الكامل في:

(12) الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي التمام. ت: محمد عبده عزّام ، دار المعارف بمصر، ط4، بدون ذكر التاريخ.ص11-13

(14) أنظر أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب الأربي، دار المعرفة بيروت، مرجع سابق، ص215.

(15) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف ط14 2009، ص270-271. وحسن الزيات، مرجع سابق، ص215.

(16) الجرّاوي، الحماسة المغربية، ج1، ص25، موقع الوراق: **http://www.alwarraq.com**

(17) أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر الأدب، ط1 دار الكتب العلمية بيروت، ص327.

(18) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، ط1 دار الكتب العلمية - بيروت 1417- هـ - 1997م.